الأدب فى سير أعلامه :

ملـــتن . . .

[الفيثارة الخالدة التى غنت أروع
أناشيد الجمال والحرية والخيال . .]

للاستاذ محمود الخفيف

— ١٧ —

حربه على القساوسة :

اعتزل ملتن الشعر إلى حين لعله ظنه قريباً ، فلم يدر بخلده أن هجران أحب شىء إلى نفسه سوف يمتد عشرين عاماً . والحق أن اعتزال ملتن الشعر والأدب على ما كان من فرط تحمسه له وانكبابه على الأخذ بأسبابه ، أمر يحمل المرء على العجب الشديد بادئ الرأى ، ولكن دواعى العجب لا تلبث أن تزول إذا عدنا إلى خلق ملتن ونزعات وجدانه

خلق ملتن محارباً يحب النضال ويعشق بفطرته الحرية ، فلن يستطيع أن يغمض العين عما يرى من خلل أو فساد ، ولن يستطيع أن يظل جامداً تلقاء ما يراه ظلماً أو استبداداً بالرأى فى غير حق ولو كان فى ذلك هلاكه ؛ كذلك رأيناه وهو بعد طالب بالجامعة ، وكذلك رأيناه وهو يفصح عن عقيدته الدينية فى إيطاليا ، وكذلك نراه اليوم إذ يوقد نار الحرب على القساوسة

وخلق ملتن ديناً تقياً مخلصاً لعقيدته تواقاً إلى الإصلاح ، لذلك ركن إلى البيوريتانز فى كثير مما ذهبوا إليه ، وإن خالفهم فى إسرافهم فى التزمت ومغالاتهم فى النفور من الفنون ومن طيبات الحياة

وكانت روح البيوريتانية يومئذ ، أو ما يهجس فى نفوس أشياعها من الرغبات هو إصلاح الكنيسة كما أصلحت الكنائس فى القارة وتقرير مبدأ الحرية الفكرية والسياسية ، وقد استقرت هذه الرغبة فى نفس ملتن وآمن بها إيماناً قوياً

واعتقد ملتن كما اعتقد جمهرة البيوريتانز أن القساوسة فى انجلترة بتعصبهم لنظام الكنيسة وبمظاهرتهم الملك فى عناده وطغيانه هم العقبة الكؤود فى سبيل الإصلاح وفى سبيل الحرية ؛ لذلك أيقن طالبو الإصلاح أن لا أمل لهم فى عمل مجد إلا أن يقضوا أولا على الأساقفة وسلطانهم ، ولهذا أقدم ملتن فيمن أقدموا لمحاربة الأسقفية ؛ ولهذا اعتزل الأرثريادا أو الفردوس المفقود ، أو سواها مما كان يملأ خياله من الشعر ، وآثر أن يجيب داعى الله بالدفاع عن دين الله

بيد أنه على الرغم من حماسته إذ يقدم على مناضلة القساوسة كان يحس فى أعماق نفسه عظم تضحيته بهجرانه الشعر ، فلقد انقطع له منذ حداثته ، وتوفر على الاستعداد والدرس ، وامتلأت نفسه طموحاً إلى شىء يسلكه فى الخالدين ؛ وكان هذا الطموح عزاء قلبه وبهجة نفسه وأنس روحه فى عزلته القاسية ، وفى دراسته الطويلة الشاقة !

ولكن لم يك من هذا الهجران بد ، فلم يك يسعه فى مثل ذلك الوقت كما قال أن يقف بمعزل « وكنيسة الله تحت أقدام من يهينها من أعدائها » ، ولم يك لينجو من عذاب ضميره لو لم يجعل ما اكتسب من ثقافة ومعرفة وقفاً على الدفاع عنها ، وفى رأيه أنه إذا لزم الصمت ، فإن الله يؤاخذه بصمته ، فلن يغفر الله له أن يقبل الفراغ والقدرة على الدرس ، وقد تهيأ له بمرق قوم آخرين ، ولا ينفقهما إلا فى أن يزين بهما موضوعات هى من فخر الحياة وغرورها ، ولكن « إذا كانت قضية الله ، وحقت إجابة داعى الله بنصرة كنيسته ، فإن الله سميع إليك إذ تطلق صوتك ... فإن بقيت أبكم كالدابة ، حق عليك منذ ذلك الوقت ما تصير إليه من إثم بصمتك الذى يشبه صمت البهائم ! »

ولئن كان همه أن يكتب موضوعاً يكسب به الفخر ، فليس هذا وقته والجيل كله يشترك فى صراع من أجل الحرية تتلظى ناره ، أو يشهد على الأقل ذلك الصراع ، وينتظر الناس وأنفاسهم عالقة ما ذا يكون من أمر هذه المعركة ، أو كما قال ملتن : « إنه لمن الحمق أن تلقى بشئ كتبته جاهداً فى نسق عال إلى قوم هم عنه ساهون ، إذ يقطع إصغاءهم إليه ما يزخر به عصرهم من ضجيج وصخب » . أضف إلى ذلك أنه لم يكن يعتقد أنه أخذ أهبته لذلك الشىء بعد ، فإنه يشير إلى ذلك حتى بعد بدء الحرب على القساوسة بنحو عام قائلا : « إنى لم أستكمل بعد فى عقلى دائرة دراساتى الشخصية » !

لذلك يدع قيثارته إلى أجل لعله يكون قريباً يوم يرى وطنه على حد تعبيره : « وقد خلص نفسه من ذلك الطغيان الذى لم يكن مثل هـذا الزمن أوانه ، ذلك الطغيان المستند إلى مقام كبار القساوسة ، والذى لا يرجى لأى فكر حر أو ذكاء ألمى أن ينمو ما دام له تجسسه واستبداده »

وثمت دافع آخر لا يقل خطراً عن هاتيك الدوافع يسوق ملتن إلى تلك الحرب ، وذلك هو عظيم ثقته فى نفسه وفى الشعب الإنجليزى ، فهو منذ صغره — كما رأينا — يعتقد أنه كفؤ لعظائم الأمور ، فما نهض لأمر — مهما كان خطره — إلا بلغ منه ما يريد ؛ واليوم يخالجه شعور أن نفسه تنطوى على قوة كامنة فيها إن هى أثيرت كانت ذات أثر عظيم فى مستقبل الكنيسة وفى مستقبل وطنه . والحق أن وراء طموح ملتن نحو العظمة الأدبية طموحاً آخر نحو العظمة فى ذاتها فى أية صورة من صورها ، فلا ضير أن تواتيه فى صورة الدفاع عن الحرية أو عن الكنيسة ، أما ثقته فى الشعب الإنجليزى فكان مردها إلى أنه يرى بنى قومه الشعب الذى اصطفاه الله على العالمين ، وأنه تجلى لخلقه من الإنجليز أول ما تجلى ، وأنهم سوف يقيمون على هذه الأرض مملكة الله التى ترى رأى العين

ومع شدة حماسته لما هو مقبل عليه تراه ينطق قبيل دخوله المعركة بما يشعرنا بتردده وإشفاقه ، نجد شاهداً على ذلك فى قوله بعد أن أشار إلى ما كان فيه من استغراق فى الأدب والشعر : « ما أقل ما يحفزنى من ميل إلى أن أقطع ما أنا بسبيله من مثل هاتيك الآمال ، وأن أترك عزلة هادئة ممتعة تكتنفها تأملات سارة وثيقة لأقلع بسفينتى فى بحر مضطرب تملأه الضوضاء والجدل الصاخب » . وهو فضلا عن ذلك يحس أنه ترك ما يحسن إلى ما لا يحسن مما يزيده شعوراً بتضحيته ، وأنه نسى نفسه وما كان يتحرق إليه من مجد أدبى ليجيب داعى الله ، نجد ذلك فى قوله: «ما كنت لأختار لنفسى أن أنهج هذا النهج من الكتابة ، وأنا على علم بأنى هنا دون حقيقتى ، فقد أعدتنى قوة طبيعية صادقة لعمل آخر ؛ ولذلك فإنى فى هذا التجه الجديد أحس كأنما أستعمل يدى اليسرى »

ولكنه يسلم إلى الله أمره ، فإن الهدى هدى الله ، انظر إلى قوله : « إذا جاء أمر الله بأن تُشرع البوق وأن ننفخ فيه نفخة شاكية صاخبة ، فلن يدخل فى إرادة الإنسان بعد ذلك ما ذا يقول ولا ماذا يخفى فى نفسه » . وكلن يؤمن بأن الله سيثيبه على فعله وسيهبه القوة والإقدام ، ويعد له فى حياته ليكون بوق النصر كما كان بوق المعركة ، ولقد ظل أثناء المعركة يفكر فيما هو عائد إليه بعد أن تنتهى الحرب .

والحق أن ملتن قد أفاد من المعركة ما لم يخطر بباله عند دخولها ، ففى أثناء تلك المعركة الطويلة تكونت فى نفسه ملحمته الكبرى الفردوس المفقود ، فكانت كلحمة دانتى عملا ليس توأمه الفصاحة والخيال والقدرة الفنية فحسب ، بل أضيف إلى ذلك تجربة الحياة ومعاناة خصوماتها والوقوف من كثب على عوامل الشر والخير فى النفس البشرية وفى المجتمع ، وتذوق طعم الأمل مرة والخيبة مرة ، والنفاذ إلى أعماق العواطف والانفعالات ثم معرفة كيف يكون اليأس القاتم بعد الأمل الباسم ، فلا عجب أن يتغنى الشاعر بعد ذلك بالفردوس المفقود ، وقد شهد فقدان بنى وطنه ما كان يرجوه لهم ويرجو معه المصلحون من حياة فى الدين والسياسة على هذه الأرض كحياة الفردوس .

وفى هذه المعركة تهيأت فى نفسه الملحمة فلم يبق إلا أن يغنيها وأن يلبسها لباس الشعر ؛ والحق أن المعركة أجدت عليه أكثر مما أجدت قراءاته ودراساته ، إذ استطاع أن يضيف خبرة الحياة إلى هبة الفن وأن يترك لهذه الدنيا أثراً فذاً من هاتيك الآثار الخوالد التى يغنيها كل عصر وتأنس إليها كل بيئة .

ومن الخطأ أن نعد دخول ملتن تلك المعركة انتصاراً منه لأصدقائه البيوريتانز فحسب فان حبه الحرية وميله إلى نصرتها أبداً هو الشعور الحقيق الذى دفع به إلى الحرب ، وكانت غايته التى يصبو إليها أن يعيش الناس طلقاء فى أفكارهم وأعمالهم بعد أن يذهب سلطان القساوسة القائم على التعصب والاستبداد بالرأى والاضطهاد ، وكان ملتن بحميته وثورة نفسه يمثل فى الواقع روح العصر ، ففى العصر كله ثورة على الطغيان فى أى صورة من صوره وما كانت البيوريتانية يومئذ فلسفة دينية فحسب ، وإنما كانت فلسفة دينية ووثبة سياسية معاً .

ومهما يكن ماصدر عنه من عبارات تشعرنا بتردده وإشفاقه فانه أقبل فى حماسة عظيمة وشجاعة فذة بعد أن ابتدأ القتال ورأى نفسه فى غمار المعركة ، وإنما كان ما خيّل إليه أنه تردد

أسفاً منه على هجرانه الشعر والتهيؤ له ...

وكيف بدأت المعركة ؟ لم يكن ملتن البادئ بها وإنما بدأت في البرلمان الطويل سنة ١٦٤٠ إذ تقدم البيوريتانز من النواب بمقترح الأصل والفرع فعندئذ نشر أحد القساوسة وكان يدعى هول كتيباً سماه « الاعلان المتواضع » ورد فيه على ما سماه بهم وزملاؤه الاعلان الأعظم كما رد على مقترح الأصل والفرع ؛ وأجاب خمسة من البيوريتانز سموا أنفسهم سيكستمنس يدحضون فيه مذاهب إليه هول ؛ وكان توماس ينج أستاذ ملتن القديم أحد أفراد هذه الجماعة ، ولذلك ظن أن ملتن اشترك في وضع هذا الكتيب ؛ ثم توالت الكتيبات كالسهام من جانب البيوريتانز ومن جانب خصومهم . وشد ملتن قوسه فيمن شد وأطلق أول سهم من سهامه سنة ١٦٤١ في صورة كتيب له هو أول كتيباته جعل له عنوانا طويلا هو « حول الاصلاح الديني فيما يتصل بنظام الكنيسة في انجلترة والأسباب التي عاقته حتى اليوم » .

كان هذا الكتيب الأول أقل كتيبات ملتن صرامة في القول وعرامة في الخصومة ، وإن كان ليبعد كل البعد عن أن يوصف بالهدوء إلا أن يقاس إلى ماسيأتي بعده ، وحسب القارئ أن يقع على خاتمته التي يدعو الله فيها أن يجعل العار خاتمة حياة القسيسين على هذه الأرض ، وأن يلقى بهم في الدرك الأسفل من النار ليخلدوا فيها وليكونوا في مواطئ غيرهم من أصحاب الجحيم ، وفي صفحات الكتيب غير هذا من صارم القول وقاذع الوصف ما يدل على غلّ الخصومة واحتدام السخيمة .

أتى ملتن في كتيبه هذا بموجز لتاريخ الكنيسة منذ القدم فلم تعجبه في قديمها ولا في حديثها ، وما قساوستها الحديثون إلا مقلدون يسيرون على نهج أسلافهم في مظاهر الصوم والصلاة والتظاهر بالزهد ، وما كان أسلافهم إلا ضالين غاوين ، فالقسيسون أنفسهم خطأ في ذاتهم ؛ وهؤلاء الحديثون منهم ليسوا قسيسين في شيء ، ثم يشير إلى النهضة الاصلاحية في انجلترة ويذكر كيف تعثرت ووقفت بسبب تعصب القساوسة والملوك واستبدادهم بآرائهم ، ويذكر الناس بهؤلاء الأحرار الذين هاجروا بعقيدتهم عن أوطانهم الحبيبة والذين « لم يكن لهم عاصم من غضب القساوسة إلا المحيط الفسيح وصحارى أمريكا الوحشية » ، والرأي عنده أن يقضي على الأسقفية فتذهب إلى غير عودة وتحل البرسبتيرية محلها ؛ ولئن تم ذلك أصبحت انجلترة « مدينة الله » وانتشرت الحياة الطيبة في أنحائها طولا وعرضاً ، فان هؤلاء القساوسة منذ حلوا بكنتربرى قبل اليوم بنحو اثني عشر قرناً وهم في جملتهم لم يكونوا في انجلترة لأرواحنا وا أسفاه إلا سلسلة من أئمة الهداية العميان الجهلاء ، ولأموالنا وتجارتنا إلا عصبة متلفة من اللصوص ولدولتنا وحكومتنا إلا هيدرا[1] الأساءة والعدوان » .

ويتضمن هذا الكتيب ناحية من نواحي ملتن الدينية وهي ما تصوره عن ذات الله سبحانه ، فعنده أن الله لا يحد ولا يوصف بصورة معينة ولا تدركه الأبصار ، ولا يفوته هنا أن يتهم الكنيسة بأنها تحاول تحديد ذات الله وتصويره وذلك في رأيه أصل الخرافات جميعاً ، يقول عن رجال الكنيسة « كما لو استطاعوا أن يجعلوا الله ينتمي إلى الأرض وأن يكون له مثل جسدنا ، وذلك لأنهم لم يستطيعوا أن ينتموا إلى السماء ولا إلى عالم الروح » .

وجاء في هذا الكتيب رأيه لأول مرة عن الشعب الانجليزي ، فهو الشعب الذي اصطفاه الله على العالمين ، وخليق بهذا الشعب أن يبرهن على أنه جدير بهذا الاصطفاء ، ويعلن ملتن رضاءه عن النظام الدستوري الانجليزي في ذاته بل إنه ليغلو في امتداحه كل الغلو فيقول : « ليس فيما سلف من الحكومات المدنية نظام كنظام حكومتنا الانجليزية ، لا عند الاسبرطيين ولا عند أهل روما ... حيث تجد أعظم النفس نبلا وأكثرهم جداً وأبعدهم نظراً ولهم بمحض إرادة الناس واختيارهم تحت سيادة ملك حر لا قيم عليه الكلمة العليا والرأي الفاصل في أعظم المسائل » .

وينتهي الكتيب بابتهال إلى الله طويل حار ملؤه العاطفة الصادقة أن يخلص كنيسته من هؤلاء القسيسين وأن ينزل عليهم لعناته ، ثم يتنبأ بنبوءة خواها أن فجراً بهيجاً يوشك أن ينهل نوره على انجلترة ، ولن يعدم ذلك الفجر طائره الصداح ، فلسوف يتمنى من بين هؤلاء القديسين الذين ينافحون عن دين الله شاعر يأتي بلحن علوي جديد يشكر به أنعم الله ويسجل نصر الله في مملكة تنعم بنعمة الحرية وقد تخلصت من القساوسة ومجدت شاعرها المختار ...

(يتبع)

العفيف

(١) التنين الخرافي ذو الرؤوس المتعددة كلما قطعت رؤوسه نبتت ثانية .